الوصايا الشعرية المرتبطة بالموت، نماذج من الشعر العربي

أ.د. ثائر سمير حسن الشمري

جامعة بابل / كلية التربية الاساسية

Poetry wills related to death, examples of Arabic poetry

Prof. Thaer Samir Hassan Al-Shammari
Babylon University / College of Basic Education
Thaersamer1973@gmail.com

Abstract

My research came to shed light on some of the poetic texts related to the writing of wills related to death. To know poets' thoughts and concerns in those moments that you translate into verses of poetry will be the focus of study and research.

Although writing the will is a religious issue referred to by the Noble Qur'an, To prove inheritance rights, as well as pay damages to the heirs, we found some poets who organized their wills free from this transcendent intent, as we will notice regarding the presentation of a text of poetic text to a group of Arab poets.

Key words: wills, death, arabic poetry.

الملخص

جاء بحثي هذا ليسلط الضوء على بعض النصوص الشعرية المرتبطة بكتابة الوصايا المتعلقة بالموت؛ لمعرفة أفكار الشعراء وهواجسهم في تلك اللحظات التي ترجموها في أبيات شعرية ستكون محور الدراسة والبحث.

وعلى الرغم من أنّ كتابة الوصية قضية دينية أشار لها القرآن الكريم؛ لإثبات الحقوق المتعلقة بالميراث، فضلاً عن دفع الضرر عن الورثة، وجدنا بعض الشعراء نظموا وصاياهم في منأى من هذا المراد السامي، كما سنلحظ ذلك فيما سنتعرض له من نصوص شعرية لمجموعة من شعراء العرب.

الكلمات المفتاحية: الوصايا، الموت، الشعر العربي

تختلف هواجس الشعراء من حين إلى آخر، وتتذبذب رؤاهم بحسب النضج الفكري الذي ينمو بتطور الزمن وتقدّمه لدى أكثرهم، فنراهم ينظمون أشعارهم بمختلف الأغراض في مرحلة عمرية معينة، ولكنهم ينظمون أشعاراً ذا طابع مختلف حين التقدم في السن، والتطور في النضج الفكري، وذلك مرتبط أيضاً باختلاف مشاربهم وتوجهاتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية، لذا نجد الاختلاف واضحاً بين الشعراء تبعاً لذلك الاختلاف، إلّا أنهم يتفقون في نظم وصاياهم الشعرية؛ حين يلامسهم اليقين بقرب الأجل، واقتراب لحظات الوداع مع الدنيا ومَن فيها، وعلى الرغم من ذلك الاتفاق في نظم شعر الوصايا، نجدهم غير متفقين على مضامين تلك الوصايا الشعرية، فمثلما تذبذبت رؤاهم الشعرية في مراحل الحياة، سواء المبكرة منها؛ او الممتلئة نضجاً وعقلاً، وجدنا وصاياهم متذبذبة أيضاً من شاعر إلى آخر، فمنهم مَن يُوصي بعدم البكاء عليه حين تحضره الوفاة، ومنهم مَن يُوصي بإجراء بعض الطقوس الدينية والاجتماعية حين وفاته، وبعضهم يُوصي بالاستمرار بارتكاب الذنوب، وفِعْل الكبائر بعد موته كما سنرى.

ومن هذا المنطلق؛ جاء بحثي ليسلط الضوء على بعض النصوص الشعرية المرتبطة بكتابة الوصايا المتعلقة بالموت؛ لمعرفة أفكار الشعراء وهواجسهم في تلك اللحظات التي ترجموها في أبيات شعرية ستكون محور الدراسة والبحث.

ومن المعروف أنّ كتابة الوصية قضية دينية أشار لها القرآن الكريم؛ في قوله (سبحانه وتعالى): **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾** [1312].

[1312] سورة البقرة/180.

وعلى الرغم من أنّ مضمون الآية الكريمة؛ لم يأتِ إلّا لإثبات الحقوق المتعلقة بالميراث، فضلاً عن دفع الضرر عن الورثة، وإبعادهم عن المشكلات التي من الممكن أنْ تقع بعد وفاة المُوَرِّث، إلّا أنّ بعض الشعراء نظموا وصاياهم في منأى من هذا المراد السامي، كما سنلحظ ذلك فيما سنتعرض له من نصوص شعرية لمجموعة من شعراء العرب.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّني وجدت نصًّا شعرياً جاهليا وحيداً في هذا المضمار؛ للشاعر جُرَيبَة بن الأشْيَم يُوصي فيه ابنه أنْ يعقرَ مطيّته على قبره، مخاطباً إيّاه بقوله:

إذا متُّ فادْفِنّي بجدّاء ما بها سوى الأصرخَين أو يفوزَ راكبُ

فإنْ أنتَ لم تعقِرْ عليَّ مطيّتي فلا قام في مالٍ لك الدَّهرُ حالبُ

ولا تدفنّني في صوى وادفنّني بديمومة تنزو عليها الجنادبُ[1313]

فوصية الشاعر الجاهلي مرآة صادقة لمعتقداته الدينية، إذ كان العرب ينحرون على قبور الموتى النوق ويبلّلونها بالدم، ويرى الدكتور جواد علي أنّه ربما كان هذا من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لها علاقة بأرواح الموتى[1314].

نلحظ أنّ النصّ الشعري وصية موجّهة إلى الابن، يأمره فيها بدفنه في صحراء خالية من كلّ شيء خلا الأصرخين (الذئب والغراب)، فضلاً عن ذبح مطيته فوق قبره، تطبيقاً لما هو مألوف لديهم من العقائد الدينية أو الاجتماعية.

وفي عود على بدء؛ نلحظ إصرار الشاعر على دفنه من لدن ابنه في صحراء واسعة تخلو من الماء، ولا وثوب فيها إلّا للجنادب، وذلك كلّه يؤكد حرص الشاعر على تنفيذ الوصية بحسب رغبته وإرادته من دون تدخل طرف آخر، فضلاً عن عدم السماح لأحد في إبداء رأيه.

وفي انتقالة إلى الشاعر المخضرم ابي محجن الثقفي، نلحظ إلحاحه الشديد، وحرصه الكبير في وصيته على دفنه بجانب ما ترغب فيه نفسه، أعني أصل إنتاج الخمرة، شجرة العنب، فقد أولع الشاعر بشربها في حياته كثيراً، حتى بعد مجيء الإسلام، وعانى كثيراً بسبب ذلك، لذا نراه راغباً في دفنه إلى أصل شجرة العنب، ظنًّا منه أنّ عروقها سترويه في قبره، فهو (الشاعر) يعلن عن خوفه من عدم تذوّقها فيما لو تم دفنه في الصحراء، إذ يقول:

إذا متُّ فادفنّي إلى أصل كرمة تروّي عظامي في التراب عُرُوقُها

ولا تدفنّني بالفلاة فانّني أخاف إذا ما متُّ أنْ لا أذُوقُها[1315]

ثمّ يبدأ الشاعر بعد وصيّته الرئيسة في البيتين السابقين بالحديث عن أوقات شربه لها في حياته؛ وربما يكون ذلك السرد لتسويغ وصيته الغريبة وهو في خضم الإسلام، فهو يباكر شربها عند شروق الشمس تارة، وتارة أخرى يشربها وقت العشاء، فهو يرى أنّ للخمرة حقوقاً يجب ألّا تضيع من لدن صاحبها، قائلاً:

أباكرها عند الشروق وتارةً يعالجني بعدَ العشيّ غَبوقُها

[1313] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب 309/2، وينظر : وصايا الآباء في الشعر الجاهلي والاسلامي /1175، الجدّاء من المفاوز: اليابسة، الأصرخين: الذئب والغراب، فوز الرجل: مات، الصوى: الأعلام من الحجارة، الواحدة صوة، ديمومة: صحراء واسعة لا ماء فيها، نزا: وثب، الجنادب: جمع جندب وهو الذكر من الجراد.

[1314] ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 130/6.

[1315] ديوان أبي محجن الثقفي/23.

ولـلـكـأس والصـــهـبـاء حـظ مـنـعـم فمن حقِّهـا أن لا تضـــاعَ حقوقُهـا[1316]

ويسـتمر المُوصِـي بسـرد افتخاره في شـرب الخمرة إلى آخر قصـيدته التي ابتدأها بوصـية دفنه، وفي هذه الأبيات يؤكد محافظته على شربها، إذ يقول:

أقــوّمــهــا زقًّــا بــجِــقّ بــذاكــم يُســـاق إلـيـنـا نـجـرهـا ونســـوقُـهـا

وعنـدي على شـــرب العقـار حفيظـة إذا مـا نســـاء الحيّ ضـــاقـت حلوقُهـا

وأعـجـلـنَ عـن شـــدّ الـمـآزر وُلـهـاً مـفـجـعـة الأصـــواتِ قـد جـفّ ريـقُـهـا

وأمـنـعُ جـارَ الـبـيـت مـمّـا يـنـوبُـه وأُكرمُ أضـــيـافـاً قِراهـا طـروقُـهـا[1317]

أمّا لبيد بن ربيعة العامري، فانه – في وصيته الشعرية– يُوصـي ابنتيه بألّا تَخْمِشان وجهاً، ولا تحلقان شعراً، فضـلاً عن مدحه – بعد وفاته– بقولهما إنّه لم يُضِـع خليلاً، ولم يَخُن صـديقاً، ولم يغدر أحداً، وقبل ذلك نراه متحدّثاً عن حال ابنتيه وتمنّيهما أنْ يعيش، على الرغم من أنّ الموت أمرٌ لا مفرّ منه، فالشـاعر لا يمكن أن ينجو من الموت كالذين سـبقوه؛ ولذلك يخبر ابنتيه بما جاد به خاطره من أبيات في أثناء ذلك، يقول فيها:

تَـمَـنَّـى ابـنـتـايَ أنْ يَـعـيـشَ أبُـوهُـمـا وهـل أنـا إلّا مـن رَبـيـعَـةَ أو مُضَـــرْ

ونـــائِـحَـــتـــانِ تـــنـــدُبـــانِ بـعـاقِـلٍ أخـاثِـقَـةٍ لا عَـيـنَ مِـنـهُ ولا أَثَـرْ

وفـي ابْـنَـي نِـزارٍ أُسْـــوَةٌ إنْ جَـزِعـتُـمـا وإنْ تســـألاهُـمْ تُـخْـبَـرا فـيـهِـمُ الـخَـبَـرْ

وفـيـمَـنْ سِـــواهُـمْ مِـن مُـلـوكٍ وسُـــوقـةٍ دعـائـمُ عَـرْشٍ خـائـلُـهُ الـدَّهـرُ فـانـقَـعَـرْ

فـقُـومـا فـقُـولا بـالـذي قـد عَـلِـمْـتُـمـا ولا تَـخمِشـــا وجهـاً ولا تـحلقـا شَـــعَرْ

وقُـولَا هـو الـمـرءُ الـذي لا خَـلـيـلَـهُ أضـــاع، ولا خـانَ الصَّـــديقَ ولا غَـدَرْ

إلـى الـحَولِ ثـمّ اســـمُ السّـــلامِ عليكُـمـا ومَـن يَـبْـكِ حولاً كـامـلاً فقـدِ اعتَـذَرْ[1318]

ويروى فيهما بيتان آخران، يفتخر فيهما الشاعر بنفسه، فهو في أوقات المحل والجوع يحشّد الناس ويجمعهم حول الجفان ويطعمهم، فيقول:

[1316] م.ن/24/ الغبوق: شرب العشيّ، حظ منهم: أي منعم صاحبه.

[1317] م.ن/24، الحق من الابل: ابن ثلاث سنين، والأنثى حقة، وسمّي ذلك لأنه استحقّ أن يحمل عليه، يقول: اشتري زقًّا بحق، ولهذا يحمل إلينا الخمر؛ لأنّا نربح حاملها، الوله هنا: جمع والهة: وهي التي تحيّرت من الفزع، وأعجلن عن شـــدّ المآزر من فزع الغارة . يقول: إني أشـــرب على هذه الحال. والحفيظة: الغضـــب، وهي ههنا المحافظة على شـــرب الخمر ، وقال قِراها طروقُها: أي قريناها عند طروقها، والطروق الإتيان ليلاً.

[1318] ديوان لبيد بن ربيعة العامري/79 ، قوله: من ربيعة أو مضر : أي كهذين الحيين في الفناء، عاقل : اسم موضع، أي له أسوة بمَن مات في عاقل، ولم يبقَ منه عين ولا أثر ، السلام: هو الله (سبحانه وتعالى).

حَشُـــودٌ على المِقْرى إذا البُزْلُ حـارَدَتْ ســـــريـعٌ إلـى الـدّاعـي مُـطـاعٌ إذا أَمَـرْ

وقـد كـنـتُ جَـلـداً فـي الـحـيـاةِ مُـرَزَّأً وقد كُنتُ أنوي الخيرَ والفضـــلَ والذُّخَرْ[1319]

لحظنا – في الوصـيتين الشـعريتين الأخيرتين – أنّ الفخر بالنفس ينصـهر فيهما مع إرادة الشـاعرين ورغبتهما في كتابة وصـيتيهما، فهو (الفخر) يمتزج بدقّة مع ما يريدانه من مستقبل الوصـية، وربما يكون وراء ذلك الامتزاج ما يشـعر به الشـاعران من قرب المنية، واسـترجاعهما للحسـنات الاجتماعية التي كانا يؤديانها فيما مضـى من حياتيهما، فآثرا الحديث عنها مع كتابة آخر ما ينشدانه من شعر قبل وفاتيهما وفراقهما للحياة.

ومع الحطيأة فانّ الوضـع مختلف تماماً عن سـابقيه من الشـعراء، وكذا الحال عن لاحقيه من أصـحاب الوصـايا الشـعرية المرتبطة بالموت، فقد كان كلّ شـيء غريباً في حياته المليئة بالمتناقضـات، من قضـية نسـبه المغموز، إلى طريقته أو فلسـفته في غرض الهجاء، لذا كانت وصيته تتماز بالمفارقة أيضاً حين حضرته الوفاة، إذ "يُروى أنّه لمّا حضرته الوفاة، أوصـى أن يُحمَل على أتان إلى أنْ يموت، قائلاً في ذلك: إنّ الكريم لا يموت على فراشه، فَحُمِل على أتان تذهب به وهو يقول" [1320]:

لا أَحَـــدٌ أَلْأَمُ مـــن حُـــطَـــيَّـــةْ هَـجـا بَـنِـيـهِ وهَـجـا الـمُـرَيَّـةْ

مِن لُؤمِهِ ماتَ على فُرَيَّةْ[1321]

إنّ الأشطر الثلاثة – على قلة ألفاظها – تحمل معاني كثيرة، تؤكّد كلّها تدهور نفسية الشاعر قبيل ساعات من وفاته، إذ يبدو أنّه في تلك الساعات القليلة؛ بدأ بمراجعة شريط حياته – إنْ وُفِّقْتُ في القول – فوجده مُتّشِحاً بألوان الازدراء والاحتقار لنفسه؛ من سوء ما فعله مع أكثر الناس المحيطين به، إذ لم يسلم منه ومن سلاطة لسانه حتّى عائلته، بل حتى نفسه، لذا جاءت الأشطر الثلاثة لتعكس صورة مأساوية في تاريخ الشاعر المثير للجدل.

ولأبي الهندي مجموعة وصـــايا شـــعرية، ارتبط مضـــمونها جميعاً بالموت، أعلن فيها عن رغبته في الاســتمرار بما كان ينتهجه في حياته، أعني شرب الخمرة حتى بعد مماته، وهو – بوصاياه هذه – يبدو متأثراً بالشاعر أبي محجن الثقفي؛ الذي تحدّثنا عن نصّـه الشـعري سـابقاً، فأبو الهندي – هو الآخر – يرغب في أنْ يتمّ دفنه إلى جانب شـجرة العنب، فضـلاً عن الإعلان عن رغبته في جعل الزقّ وسـادة تحت رأسـه في قبره، ولا يقتصـر الأمر على ذلك فحسـب، بل نراه يُوصـي بوضـع ابريق إلى جانبه، وكذلك الطاس؛ لكي يروّي هامته – كما يقول– ويغدو زاداً له في حفرته، ذلك كلّه نجده في بيتيه اللذين يقول فيهما:

إذا حـانَـت وفـاتـي فـادفـنـونـي بـكـرْمٍ واجـعـلـوا زقَّـا وســـادي

وابـريـقـاً إلـى جـنـبـي، وطـاســـاً يـروِّي هـامـتـي ويـكـون زادي[1322]

[1319] م.ن/80، المقرى : الذي يقرى فيه الضـيف . البزل: الإبل التي تجاوزت تسـعة أعوام، حاردت: قلّ لبنها أو انقطع، يعني أنه في أوقات المحل يحشد الناس حول الجفان ويطعمهم.

[1320] تاريخ الأدب العربي/195–196.

[1321] ديوان الحطيئة:186.

[1322] ديوان أبي الهندي/25–26.

وفي وصية أخرى للشاعر نفسه، نجده يضاعف مطالبه فيها؛ فيما يتعلق بالخمرة ورغبته في احتسائها بعد مماته، إذ نراه – في هذا النص – يُوصي بجعل كفنه نسيجاً من ورق الكرم (العنب) وليس قماشاً مألوفاً، ويدعو – في الوقت نفسه– إلى جعل قبره عبارة عن معصرة لذلك العنب، لكي ينتج خمرة يرغب في احتسائها، بدلالة طلبه أنْ تُوضَع الأقداح حول قبره، فيقول:

اجعلوا إنْ متُّ يوماً كَفَني وَرَقَ الكَرْمِ وقبري معصَرَهْ

وادفنوني وادفنوا الرّاحَ معي واجعلوا الأقداحَ حول المقبرَهْ[1323]

ويتمادى الشاعر أكثر من ذلك؛ في وصيته السابقة، وذلك حين يختمها ببيت ثالث، تبدو عليه آثار السخرية واللامبالاة من طريق الألفاظ والمعاني المدونة فيه، إذ يعلن فيه عن رجائه من اللهِ (سبحانه وتعالى) حسن المغفرة بعد هذا التمادي كلّه في شرب الخمرة، إذ قال:

إنني أرجو من اللهِ غداً بعد شرب الرّاح حُسْنَ المغْفرَهْ[1324]

وللشاعر نفسه وصية شعرية ثالثة لا تختلف في مضمونها عن مضمون الوصيتين السابقتين، إلّا في مجال التفصيل والإعلان عن رغبته في التواصل مع الخمرة بعد وفاته ودفنه، ففي وصيته هذه يطلب من نَدِيمَيه مزج الخمرة واسقاءه، فضلاً عن دعوته لهما بالشرب معه، وألّا يُعيرا العاذل اهتماماً، بل تركه يهذي كيفما يشاء، كما أنّه (الشاعر) يرغب في إفشاء الأسرار في اثناء شرب الخمرة، أما في حال موته، فانه يدعو إلى فرش الخمرة تحته، وجعل كفنه من زقّها، وأنْ يكون قبره بجانب شجرة عنب عظيمة الفرع، لكي يروّي أصلها عطشه، وبعد ذلك كلّه؛ يطالبهما أنْ يسلّما أمره إلى الله (سبحانه وتعالى) ليفعل به وبنديميه ما يشاء، فهو الراحم؛ بحسب تعبيره، إذ قال:

امزجاها واسقياني واشربا ودعا العاذلَ يهذي كيف شا

وافشيا السِّرَّ فما يهنأ لي شَرْبها إلّا إذا السَّرُّ فشا

واذا متُّ اضجعاني وافرشا من عصير الكَرْمِ تحتي فُرُشا

واقطعا لي كفناً من زقِّها واطرحا منها عليه وارششا

وادفناني يانديميَّ إلى جَنبِ كَرْمٍ فَرْعُه قد عَرَّشا

ليظلّ الفرع منّي ظاهراً ويروّي الأصل منّي العطشا

وكلاني بعد هاتيك إلى راحمٍ يفعل فينا ما يشا[1325]

وكان الشاعر بكر بن خارجَة ورّاقاً يصرف ما يكسبه في شرب الخمرة في منازل الخمّارين وحاناتهم، لذا كان اسلوب حياته مشابهاً لأسلوب حياة أبي الهندي، ولهذا السبب تشابهت وصاياهما الشعرية المرتبطة بالموت، فهو الآخر يوصي – في نصٍّ شعري– أنْ يتمّ دفنه إلى أصل شجرة العنب؛ لأنه يرى أنّ روحه تحيا بماء العنب، ويطلب من متلقي وصيته أن يتمّ تحنيطه بتراب

[1323] م.ن/33–34.

[1324] م.ن /34.

[1325] م.ن/41–42.

تلك الشجرة، فضلاً عن رشّ كفنه من رحيقها، وذلك كلّه يكون في المكان الذي يُدفَن فيه بحسب رغبته هو، إذ دعا إلى دفنه بحانة عند الدّنّ بمنطقة (فنا عسكر)، وهكذا فانه يبقى متواصلاً مع ما كان يهواه ويعشقه في حياته، قال:

ادْفِنُونِي إنْ متُّ فِي أصلِ كَرْمٍ إنَّ رُوحِي تَحْيَى بماءِ الكُرُومِ

واحْنِطُونِي بتُربِها ثُمّ رُشُّوا كَفَنِي من رَحِيقِها المَخْتُومِ

وادفِنُونِي بحانَةٍ عندَ دِنّ بِفَنا عَسْكَرِ الدّنان مُقِيمِ[1326]

وبعيداً عن الوصايا التي تتخذ من الخمرة موضوعاً رئيساً لها، نتحدث عن وصية السيد الحميري – مع أنها خلت من الشعر– الذي " لم يترك لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) فضيلة معروفة إلّا نقلها إلى الشعر " [1327].

فقد روى ابن المعتز في طبقاته أنّه " لما احتضر السيد نظر إليه غلامه وبكى، فقال له: ما يبكيك ؟ قال: وكيف لا أبكي وأنت تموت وليس لك كفن؟ فقال: إذا أنا قضيت فصِر إلى صفّ الخّزازين، فقل: أَلَا إنّ السيد الحميري مادح آل رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات. ففعل، فوافاه سبعون كفناً فيها الوشي والدبيقي"[1328].

أمّا العباس بن الأحنف، الذي عُرِفَ بغزله الشيّق العفيف، فانه – في وصيته الشعرية– يطلب مِمَّن يتوجّه بالحديث إليهم؛ أن يرشّوا ماء زمزم على قبره، ثم يندبونه بوصفه قتيلَ حبِّ النساء، وليس بوصفه قتيلَ الحروب، وذلك بعد أنْ خاطبهم بحديث يصف فيه حاله وهو في القبر، وقد حال بينه وبين زائريه ذلك الحاجز ما بين مَن هو فوق الأرض، ومَن يرقد تحتها، إذ قال:

وإنْ أنتُمُ جِئْتُمْ وقد حِيلَ بينكُمْ وبيني بيومٍ للمَنونِ عصيبِ

وصَرتُ من الدنيا إلى قَعرِ حفرةٍ حليفَ صَفيحٍ مُطْبَقٍ وكئيبِ

فَرُشّوا على قبري من الماءِ وانْدُبوا قتيلَ كعابٍ لا قتيلَ حروبِ[1329]

وشتّان ما بين مَن يُوصي برشّ ماء زمزم على قبره، ومَن يُوصي برشّ الخمرة تحته وفوقه في القبر مثلما لحظنا في شعر أبي الهندي، وبكر بن خارجَة، وحتماً أنّ مردّ ذلك إلى الفرق بين مَن استقرّت نفسه واطمأنّت إلى خالقها، ومَن تمرّدت نفسه واتّبعت أهواءها المضلّة في تتبع خطوات الشيطان، فغدا له بئس القرين.

وحين توفي أبو العتاهية، دُفِنَ في بغداد، وأوصى أنْ يكتب على قبره[1330]:

أُذْنَ حَيٍّ تسَمَّعِي اسمعي ثمّ عِي وَعِي

أنا رَهنٌ بمضجعي فاحذري مِثلَ مصرَعي

عِشتُ تِسعينَ حِجَّةً أسلَمَتني لِمَضجَعي

كم ترى الحَيَّ ثابتاً في دِيارِ التَّزَعزُعِ

[1326] بكر بن خارجة، ضمن: شعراء عباسيون منسيون: ق2/ ج5، ص98.

[1327] طبقات الشعراء/32.

[1328] م.ن/ 37.

[1329] ديوان العباس بن الأحنف/9.

[1330] ينظر: تاريخ الأدب العربي/419.

لـــيـــسَ زادٌ سِـــــوى الـــتُّـــقـــى فَـــخُـــذي مِـــنـــهُ أو دَعِـــي [1331]

ينطلق أبو العتاهية في وصيته الشعرية من مبدأ الزهد الذي عُرِفَ به طوال حياته، فمع أنّه عاش طويلاً، إلّا أنّه لم يجد زاداً أفضل من التقوى، لذا ينصح الآخرين بالتزوّد منه، تاركاً لهم الخيار في الأخذ أو التَّرْك، فالدنيا دار ذهاب، لا دار بقاء، ولابدّ للإنسان من تركها عاجلاً ام آجلاً.

وتأتي وصية الشاعر أبي فراس الحمداني مؤكّدة ديمومة القيم الدينية الراسخة في نفوس المسلمين، وكذا الحال القيم الاجتماعية التي درج الناس على نهجها عبر العصور المختلفة.

أمّا مناسبة نظمه لوصيته، فقد رُوِيَ أنّه أصبح يوم مقتلهِ حزيناً، كئيباً؛ وكان قد قَلِقَ تلك الليلة؛ قلقاً عظيماً؛ فرأتهُ ابنته (امرأة أبي العشائر) كذلك ؛ فأحزَنَها حزناً كئيباً؛ ثمّ بكت، وهو على تلك الحال، فأنشأ يقول؛ ورجلُهُ في الرِّكاب؛ والخادم يضبطُ السّيرَ عليها، وإنّما قال ذلك، كالذي ينعي نفسه، وإنْ لم يقصد ذلك، فقال[1332]:

أبُـنَـيَّـتِـي، لا تَـحْـزَنِـي كُـلّ الأنـامِ إلـى ذَهـابِ

أبُـنَـيَّـتِـي، صـبـراً جـمـيـ ـلاً للجليل من المُصـابِ

نُـوحِـي عَـلَـيَّ بـحَسْـرَةٍ مِـن خَـلْـف سـتـرِكِ والـحِـجـابِ

قُـولـي إذا نـادَيْـتِـنـي وعَـيـيـتُ عـن رَدِّ الـجَـوَابِ

زيـن الشـبـابِ، أبـو فِـرا سٍ، لـم يُـمَـتَّـعْ بـالشَّـبـابِ [1333]

فالموت أمر حتمي لا مهرب منه، فضلاً عن الصبر، الذي هو من أهم ما أوصى به الإسلام، والأمران معاً تحدّث عنهما الشاعر في وصيته التي خاطب بها ابنته في حال موته، أمّا قضية النواح عليه من خلف الستر والحجاب، فهي قضية اجتماعية معروفة في المجتمع العربي، مع أنها لا تخرج عن أوامر الدين الإسلامي.

ثمّ ينتقل الشاعر إلى إرشاد ابنته بخصوص كيفيّة التصرّف في حال نادته في قبره، وعجز عن ردّ الجواب، وذلك بأن تقول: إنّ أباها زين الشباب؛ إلّا أنّه لم يحظَ بالتمتّع بشبابه؛ لأنّه قضاه من حرب إلى حرب كما هو معروف.

وأوصى الشاعر الأندلسي أبو عامر ابن شهيد (ت426هـ) أنْ يُدفَن بجنب صديقه أبي الوليد الزجالي، ويُكتَب على قبره في لوح رخام هذه الكلمة[1334]:

" بسم الله الرحمن الرحيم: قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون. هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب، مات وهو يشهد أَلَّا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ الجنة حقّ، والنار حقّ، والبعث حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور. ومات في شهر كذا من عام كذا "[1335].

ثمّ أوصى أنْ يُكتَبَ تحت هذا النثر أبياته التي يخاطب بها صديقه المدفون، متحدثاً إليه بأسلوب الاستفهام الإنكاري، طالباً منه القيام، بسبب طول البقاء في القبور، ليأتي ردّ صديقه بالسلب، إذ أجابه بأنّهما ليس بإمكانهما القيام منها بسبب التراب

[1331] أبو العتاهية أشعاره وأخباره/231.

[1332] ينظر: ديوان أبي فراس الحمداني/251-252.

[1333] م.ن/252.

[1334] ينظر: النثر الفني في القرن الرابع/376.

[1335] م.ن /376.

الذي يعلوهما، ثمّ يبدأ حوار الذكريات بينهما في ظلّ الأنعام التي تمتعوا بها في شبابهما، والسرور الذي كانا يرفلان فيه، إلّا أنّه أصبح من الذكريات المؤلمة؛ إذ انقضت تلك الأيام، في الوقت الذي طال فيه بقاؤهما في قبريهما مع تلك الذنوب التي اقترفاها، وقد جمعها الله (سبحانه وتعالى) لديه، وقد بدا عليهما الخوف من العذاب، لذا طلبا العفو من ربّ العزّة (جلّ وعلا شأنه)، فهو المولى الذي قَصَّرَ في شكره العبيد، ذلك كلّه ورد في الأبيات الآتية:

ياصاحبي قم فقد أطلنا أنحنُ طول المدى هجود!

فقال لي: لن نقوم منها مادام من فوقها الصعيد

تذكر كم ليلة نعمنا في ظلّها والزمان عيد

وكم سرور همي علينا سحابةُ ثرة تجود

كُلٌّ كأن لم يكن تقضَّى وشؤمُهُ حاضرٌ عتيد

حصَّلَهُ كاتب حفيظ وضمّه صادق شهيد

ياويلنا إنْ تنكّبتنا رحمة من بطشه شديد

ياربّ عفواً فأنت مولى قَصَّرَ في شكره العبيد[1336]

ولكي يغدو الشاعر أكثر إقناعاً لنفسه والآخرين، أكّد قوله بالإشارة إلى آية قرآنية كريمة، فقوله:

حصَّلَه كاتب حفيظ وضمّه صادق شهيد

فيه نظرة إلى قوله (سبحانه وتعالى): **﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** [1337].

وبالنسبة لفيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري، فانّ التشاؤم الذي التصق به طوال حياته في امور كثيرة كموقفه من المرأة والزواج، وسوى ذلك، جعله يُوصي أن يكتب على قبره:

هذا ما جَناهُ أبي عَلَيَّ وما جنيتُ على أحد [1338]

فوالده الذي كان سبب مجيئه إلى الدنيا، يتحمل جزءاً كبيراً من معاناته، بحسب رؤية الشاعر نفسه، إذ وُلِدَ الأخير من دون رؤية النور، الأمر الذي سبب له ألماً كبيراً، وقد أصابه اليأس في ظلّ حياة مليئة بالشّر والمتناقضات، الأمر الذي أدّى به إلى نظم هذا البيت، والتوصية بكتابته على قبره، مفتخراً فيه فخراً ممزوجاً بالألم، بأنّه لم يجنِ على أحد؛ لكونه لم يتزوّج كوالده الذي كان سبباً في تحطيم حياته بحسب رأيه.

[1336] م.ن/376.

[1337] سورة المجادلة/6.

[1338] اللّزوميات12/1.

وللشاعر ابن مطروح وصيّتان شعريّتان، كتبهما في يوم مماته، وأوصى بكتابتهما على قبره، تتجلّى أولاهما من طريق تساؤله مستنكراً ومخاطباً نفسه عن الجزع من الموت في الوقت الذي تتواجد فيه رحمة الخالق (جلّ وعلا)، فاذا جاء المرء بذنوب الناس كلّهم؛ لوجد رحمة ربّه واسعة، قال:

أتجزعُ للموتِ هذا الجزعْ ورحمةُ رَبِّكَ فيها الطّمعْ

ولو بذنوبِ الورى جئتَهُ فرحمتُهُ كُلَّ شيء تَسَعْ[1339]

وتجدر الإشارة إلى أنّ قوله في عجز البيت الثاني فيه نظرة إلى قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾**[1340].

أمّا وصيّته الأُخرى، التي أمر بكتابتها على قبره أيضاً، فلم تبتعد كثيراً عن مضمون وصيته السابقة، فهي أيضاً بيتان شعريان؛ يعترف فيهما الشاعر بأن قبره عبارة عن تربة إنسان جاء بذنوب كثيرة وعظيمة؛ آملاً في الوقت نفسه أنْ يعفو الله (سبحانه وتعالى) عنه، فالكرم من صفاته، لذا يرجو أن يعفو عنه الكريم بعد أنْ عصاه، قائلاً:

هذه تربةُ مَن قد عَظُمت منه الذنوبُ

والكريمُ المحضُ مَن يُعْصَى فيعفو ويثوبُ[1341]

وأخيراً، لا أدّعي أنّني شملتُ في بحثي هذا نصوص الشعراء كلّهم، بل لجأتُ إلى بعض النماذج من الشعر العربي، لاسيما الشعر في العصر العباسي، في محاولة للوقوف على آراء الشعراء، وسبر أغوار مشاعرهم وهم ينظمون وصاياهم الشعرية المرتبطة بالموت، وأرجو أنْ أكون قد وُفِّقْت في قصدي هذا.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، أوّل المصادر وأكرمها.
- أبو العتاهية أشعاره وأخباره، طبعة محققة على مخطوطتين ونصوص لم تُنشَر من قبل، عُني بتحقيقها: د.شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ-1965م.
- بكر بن خارجَة، ضمن : شعراء عباسيون منسيون، ابراهيم النجار، القسم الثاني، الجزء الخامس، مسالك البطالة أو التطرّح في الديارات ومتنزهاتها وحاناتها، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي، شرح وضبط: محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، ط2، د.ت.
- تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، المطبعة البولسية، بيروت- لبنان، ط6، د.ت.
- ديوان ابن مطروح، تحقيق: د. حسين نصّار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، 1425هـ-2004م.
- ديوان أبي فراس الحمداني، رواية : أبي عبد الله الحسين بن خالويه، عُنِي بجمعه ونشره: د. سامي الدهان، الاختيار والتقديم والشرح: أحمد عكيدي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2004.
- ديوان أبي محجن الثقفي وشرحه، لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، مطبعة الأزهار البارونية بشارع محمد علي بالحبانية بمصر، د.ت.

[1339] ديوان ابن مطروح/99.

[1340] سورة غافر/ من الآية7.

[1341] ديوان ابن مطروح/100.

- ديوان أبي الهندي وأخباره، صنعة: عبدالله الجبوري، منشورات: مكتبة الأندلس– بغداد، مطبعة النعمان– النجف الأشرف، ط1، 1389هـ–1969م.
- ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكّيت، دراسة وتبويب: د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1413هـ–1993م.
- ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية– القاهرة، ط1، 1373هـ/1954م.
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر – بيروت، د.ت.
- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، ط4، 1375هـ–1956م [تاريخ مقدمة المحقق].
- اللّزوميات، ديوان لزوم مالا يَلزَم لأبي العلاء المعري، حققه وعلّق حواشيه وقدّم له: د.عمر الطبّاع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، د.ت.
- المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ط9، 1976.
- النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت– لبنان، 1975.
- وصايا الآباء في الشعر الجاهلي والإسلامي، فتحي خضر، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، م19 (4)، 2005.